قصّة بني جلعاد مع يفتاح ...
قصّتهم مع الربّ (قض ١٠: ١٧ - ١١: ١١)

الأب أنطوان عوكر

مقدّمة

كَثُرت النظريّات حول دور القضاة في حياة شعب العهد القديم، مِن دور تنظيميّ إلى دور قضائيّ، مرورًا بدور رئاسيّ وآخَر قتاليّ... يلفّ هذا الغموض دور يفتاح الذي يرد ذكره في الفصلَين ١١-١٢ من سفر القضاة؛ لكنّ الدور البارز الذي لعبه في هذين الفصلَين هو القتال.

يرد ذكر يفتاح بين قضاة «صغار»: قاضيَين قبله وثلاثة بعده. يبرز هذا التقسيم من خلال تكرار جملة حول موت القاضي ومكان دفنه. ففي الفصول ١٠-١٢ تتكرّر هذه الجملة ستّ مرّات في ١٠: ٢ و٥؛ ١٢: ٧ و١٠ و١٢ و١٥. فالكلام على القاضي تُولَع يرد في آيتَين فقط (١٠: ١-٢)، وعلى القاضي يائير في ثلاث آيات (١٠: ٣-٥)؛ وبعد القاضي يفتاح يرد ذكر القاضي إبصان في ثلاث آيات (١٢: ٨-١٠)، والقاضي أيلون في آيتَين (١٢: ١١-١٢)، والقاضي عَبدون في ثلاث آيات (١٢: ١٣-١٥). ما يهمّنا هُنا من هذه التقسيمات هو أنّ القسم الذي يمتدّ من ١٠: ٦ إلى ١٢: ٧ يُشكّل الإطار الكتابيّ لسيرة يفتاح. مِن هُنا علينا أوّلاً وضع النصّ الذي يستوقفنا (انطلاقة يفتاح القياديّة) في هذا الإطار، لنتمكّن من فهم المعنى الذي أراد كاتب سفر القضاة إعطاءه لرواية سيرة يفتاح. وبعد عرض ترجمة حرفيّة بين السطور لنصّنا سوف نتوقّف على بعض الملاحظات الأدبيّة التي تُساعدنا على استخلاص أبرز المعاني اللاهوتيّة.

المحطّات الكبرى في سيرة يفتاح

(قض ١٠: ٦-١٢: ٧)

يُجذّر كاتب سفر القضاة ظهور يفتاح بالكلام على خطيئة بني إسرائيل مع الربّ وصراخهم وارتدادهم إليه (١٠: ٦-١٦). يختصر هذا النصّ الحلقة المفرغة التي سيطرت مدّة طويلة على تاريخ شعب العهد القديم: خطيئة الشعب (آ ٦)، غضب الربّ (آ ٧أ)، خسارة الشعب أمام الشعوب المجاورة (آ ٧ب-٩)، صلاة الشعب للربّ (آ ١٠)، رفض الربّ تخليصهم (آ ١١-١٤)، ندامة الشعب (آ ١٥-١٦أ)، رحمة الربّ (آ ١٦ب).

تُشكّل هذه الآية الأخيرة (آ ١٦ب) تمهيدًا واضحًا لظهور يفتاح. لقد ضاقت نفس الربّ أمام عناء شعبه؛ تأتي المحطّة الثانية (ظهور يفتاح وقبوله المحاربة: ١٠: ١٧ - ١١: ١١) كتحقيق لهذه الرحمة.

تُبرز المحطّة الثالثة (١١: ١٢-٣٣) تبرير يفتاح للحرب وانتصاره فيها والنذر الذي نذره للربّ. أمّا المحطّة الرابعة فتتوقّف على تتميم النذر الذي قضى بتقديم ابنته الوحيدة ذبيحة للربّ (١١: ٣٤-٤٠).

■ ■ ■

سفر القضاة

10 17 וַיִּצָּעֲקוּ בְּנֵי עַמּוֹן וַיַּחֲנוּ בַּגִּלְעָד וַיֵּאָסְפוּ בְּנֵי יִשְׂרָאֵל וַיַּחֲנוּ בַּמִּצְפָּה׃
وتنادَوا بَنو عمّونَ وخيَّموا في جِلعادَ واجتَمَعُوا بَنو إسرائيلَ وخيَّمُوا في المصفاةِ

18 וַיֹּאמְרוּ הָעָם שָׂרֵי גִלְעָד אִישׁ אֶל־רֵעֵהוּ מִי הָאִישׁ אֲשֶׁר יָחֵל לְהַלָּחֵם בִּבְנֵי
وقالُوا الشعبُ أُمراءُ جِلعادَ الرجُلَ لِصاحِبِهِ أيُّ رجُلٍ الذي يبدأُ بمحاربةِ بَني

עַמּוֹן יִהְיֶה לְרֹאשׁ לְכֹל יֹשְׁבֵי גִלְעָד׃
عَمّونَ يكونُ رئيسًا لِكُلِّ سُكّانِ جِلعادَ

11 1 וְיִפְתָּח הַגִּלְעָדִי הָיָה גִּבּוֹר חַיִל וְהוּא בֶּן־אִשָּׁה זוֹנָה וַיּוֹלֶד גִּלְעָד
ويفتاحُ الجِلعاديُّ كانَ جبّارًا قويًّا وهو ابنُ امرأةٍ زانيةٍ وولَدَ جِلعادُ

אֶת־יִפְתָּח׃ 2 וַתֵּלֶד אֵשֶׁת־גִּלְעָד לוֹ בָּנִים וַיִּגְדְּלוּ בְנֵי־הָאִשָּׁה וַיְגָרְשׁוּ אֶת־יִפְתָּח
يَفتاحَ وولَدَتِ امرأةُ جِلعادَ لَهُ بَنينَ وكبروا بَنو المرأةِ وطرَدُوا يَفتاحَ

וַיֹּאמְרוּ לוֹ לֹא־תִנְחַל בְּבֵית־אָבִינוּ כִּי בֶן־אִשָּׁה אַחֶרֶת אָתָּה׃ 3 וַיִּבְרַח יִפְתָּח
وقالوا لَهُ لَن تَرِثَ في بيتِ أبينا لأنَّ ابنُ امرأةٍ أُخرى أنتَ وهَرَبَ يَفتاحُ

מִפְּנֵי אֶחָיו וַיֵּשֶׁב בְּאֶרֶץ טוֹב וַיִּתְלַקְּטוּ אֶל־יִפְתָּח אֲנָשִׁים רֵיקִים וַיֵּצְאוּ עִמּוֹ׃
مِن وجهِ إخوتِهِ وأقامَ بأرضِ طوبٍ فانضَمَّ إليهِ قومٌ بَطّالونَ وكانوا يَخرُجونَ معَهُ

4 וַיְהִי מִיָּמִים וַיִּלָּחֲמוּ בְּנֵי־עַמּוֹן עִם־יִשְׂרָאֵל׃ 5 וַיְהִי כַּאֲשֶׁר־נִלְחֲמוּ בְּנֵי־עַמּוֹן
وكانَ بعدَ أيّامٍ فحارَبُوا بَنو عمّونَ مَعَ إسرائيلَ وكانَ إذ حارَبُوا بَنو عمّونَ

עִם־יִשְׂרָאֵל וַיֵּלְכוּ זִקְנֵי גִלְעָד לָקַחַת אֶת־יִפְתָּח מֵאֶרֶץ טוֹב׃ 6 וַיֹּאמְרוּ לְיִפְתָּח
مع إسرائيلَ ومَضَوا شيوخ جِلعادَ لأخذِ يَفتاحَ مِن أرضِ طوبٍ وقالوا لِيَفتاحَ

לְכָה וְהָיִיתָה לָּנוּ לְקָצִין וְנִלָּחֲמָה בִּבְנֵי עַמּוֹן׃ 7 וַיֹּאמֶר יִפְתָּח לִזְקְנֵי גִלְעָד הֲלֹא
تعالَ فتكونَ لنا قائدًا فنُحارِبَ بَني عمّونَ فقالَ يَفتاحُ لِشيوخِ جِلعادَ أَما

אַתֶּם שְׂנֵאתֶם אוֹתִי וַתְּגָרְשׁוּנִי מִבֵּית אָבִי וּמַדּוּעַ בָּאתֶם אֵלַי עַתָּה כַּאֲשֶׁר צַר
أنتُم أبغَضتُم إيّاي وطَرَدتُموني مِن بيتِ أبي فلماذا جِئتُم إليَّ الآنَ إذ ضاقَ

לָכֶם׃ 8 וַיֹּאמְרוּ זִקְנֵי גִלְעָד אֶל־יִפְתָּח לָכֵן עַתָּה שַׁבְנוּ אֵלֶיךָ וְהָלַכְתָּ עִמָּנוּ
لكُم فقالوا شيوخ جِلعادَ لِيَفتاحَ لذلكَ الآنَ رَجَعنا إليكَ فتَذهَبُ معَنا

וְנִלְחַמְתָּ בִּבְנֵי עַמּוֹן וְהָיִיתָ לָּנוּ לְרֹאשׁ לְכֹל יֹשְׁבֵי גִלְעָד׃ 9 וַיֹּאמֶר יִפְתָּח
وتُحارِبَ بَني عمّونَ وتكونَ لنا رئيسًا لِكُلِّ سُكّانِ جِلعادَ فقالَ يَفتاحُ

אֶל־זִקְנֵי גִלְעָד אִם־מְשִׁיבִים אַתֶּם אוֹתִי לְהִלָּחֵם בִּבְנֵי עַמּוֹן וְנָתַן יְהוָה אוֹתָם
لِشيوخِ جِلعادَ إنْ مُرجِعونَ أنتُم إيّايَ لمحاربةِ بَني عمّونَ ووهبَ الربُّ إيّاهُم

לְפָנָי אֲנִי כִּי אֶהְיֶה לָכֶם לְרֹאשׁ׃ 10 וַיֹּאמְרוּ זִקְנֵי־גִלְעָד אֶל־יִפְתָּח יְהוָה
أمامي أنا أكونُ لكُم رئيسًا وقالوا شيوخ جِلعادَ لِيَفتاحَ الربُّ يكونُ

שֹׁמֵעַ בֵּינוֹתֵינוּ אִם־לֹא כִּדְבָרְךָ כֵּן נַעֲשֶׂה׃ 11 וַיֵּלֶךְ יִפְתָּח עִם־זִקְנֵי גִלְעָד
سامِعًا بيننا إنْ لا ككلمتِكَ هكذا نفعلُ فمَضَى يَفتاحُ معَ شيوخِ جِلعادَ

וַיָּשִׂימוּ הָעָם אוֹתוֹ עֲלֵיהֶם לְרֹאשׁ וּלְקָצִין וַיְדַבֵּר יִפְתָּח אֶת־כָּל־דְּבָרָיו לִפְנֵי
وجعلُوا الشعبُ إيّاهُ عليهِم رئيسًا وقائدًا فتكلَّمَ يَفتاحُ بكلِ كلماتِهِ أمامَ

יְהוָה בַּמִּצְפָּה׃
الربِّ في المصفاةِ

١٠ ١٧واجتمَعَ بَنو عَمُّونَ وخيَّموا بِجِلعادَ، واجتمَعَ بَنو إسرائيلَ وخيَّموا بالمِصفاةِ. ١٨فقالَ شُيوخُ جِلعادَ بَعضُهُم لِبعض: «مَنْ يَبدأُ الحربَ على بَني عَمُّونَ يكونُ رئيساً على سُكّانِ جِلعادَ كُلِّهِم».

١١ ١وكانَ يَفتاحُ الجِلعاديُّ رَجُلاً جبّاراً، وهوَ ابنُ امرأةٍ بَغيٍّ ولَدَتْهُ لِجِلعادَ. ٢ثُمَّ وَلَدت لَه زَوجتُهُ بَنينَ، فلمّا كبُروا طَرَدوا يَفتاحَ وقالوا لَه: «لا ميراثَ لكَ في بَيتِ أبينا، لأنَّكَ ابنُ امرأةٍ غريبةٍ». ٣فهَربَ يَفتاحُ مِنْ أمامِ إخوتِهِ وأقامَ بأرضِ طُوبٍ، فانضَمَّ إليهِ قومٌ بَطّالونَ، وكانوا يَخرُجونَ معَهُ لِلغَزوِ. ٤وبَعدَ زمَنٍ حارَبَ بَنو عَمُّونَ بَني إسرائيلَ، ٥فذَهبَ شُيوخُ جِلعادَ لِيأتوا بيَفتاحَ مِنْ أرضِ طُوبٍ، ٦وقالوا لَه: «كُنْ لنا قائداً، فنُحارِبَ بَني عَمُّونَ». ٧فأجابَهُم يَفتاحُ: «ألَم تُبغِضوني وتَطرُدوني مِنْ بَيتِ أبي، فكيفَ جِئتُم إليَّ الآنَ في ضيقَتِكُم؟» ٨فقالوا لَه: «جِئنَاكَ حتّى تقودَنا وتُحارِبَ بَني عَمُّونَ وتكونَ رئيساً علَينا وعلى جميعِ سُكّانِ جِلعادَ». ٩فقالَ لهُم: «إذا أرجَعتُموني لِمُحارَبةِ بَني عَمُّونَ وغلَبتُهُم بمَعونةِ الرَّبِّ فهل أصيرُ رئيساً علَيكُم؟» ١٠فأجابوا: «ليكُن الرَّبُّ شاهِداً بَينَنا إذا كُنا لا نفعلُ ما تقولُ». ١١فمَضى يَفتاحُ معَ شُيوخِ جِلعادَ. وأقامَهُ الشَّعبُ علَيهِم رئيساً وقائداً، فثبَّتَ أمامَ الرَّبِّ في المِصفاةِ الاتِّفاقَ الَّذي قطَعَهُ لِلشُّيوخِ.

بُنية النصّ الأدبيّة

- مقدّمة، برنامج: ١٠: ١٧-١٨
- يفتاح، الجبّار الباسل، مَطرود: ١١: ١-٣
- يَفتاح، الجبّار الباسل، مُعاد: ١١: ٤-١٠
- خاتمة، تحقيق: ١١: ١١

❑ ١٠: ١٧-١٨

بعد المقدّمة «الإلهيّة» في ١٠: ١٦ب، هُناك التمهيد «الميدانيّ» (١٠: ١٧)، والبرنامج الذي سيُطلقه الشعب وأُمراء جلعاد (١٠: ١٨). ميدانيًّا، هُناك فعلان مُختلفان يصفان عمل كلٍّ من بني عمّون وبني إسرائيل. بَنو عمّون «تَنادَوا» للحرب، أمّا بَنو إسرائيل فاجتمعوا لأنّه لم يكن لهم رئيس يقودهم في دفاعهم. كان اجتماعهم في «المصفاة»؛ سوف تُعلمنا خاتمة نصّنا أنّ في «المصفاة» مَعبدًا للربّ (١١: ١١ب).

أمّا البرنامج الذي تعرضه هذه المقدّمة فواضح: كلّ مَن يبدأ الحرب على بني عمّون يكون «رئيسًا» لكلّ سكّان جلعاد. سوف يعرض النصّ كيفيّة تحقيق هذا البرنامج.

❑ ١١: ١-٣

لا تأتي هذه الآيات على ذكر بني إسرائيل ولا بني عمّون. تتوقّف فقط على شخصيّة يفتاح وعلى علاقته بأنسبائه. إنّه رجل جلعاديّ جبّار قويّ مُعتاد على الحروب والغزوات. هذه الصفات تخوّله أن يملأ متطلّبات البرنامج الذي يصبو إليه أهل جلعاد. لكنّ يفتاح لم يَبقَ في أرضه لأنّه كان ابن امرأة زانية فطرده إخوته لأبيه. ذهب وأقام في منطقة «طوب» التي تحمل معنًى رمزيًّا: «الصالح».

❑ ١١: ٤-١٠

تُعيدنا الآيتان ٤ و٥ إلى المعطيات الواردة في المقدّمة: حرب بني عمّون على بني إسرائيل. وفي سبيل تحقيق الخطّة المرسومة يذهب شيوخ جلعاد إلى يفتاح في أرض طوب ويتحاورون معه. تحتوي هذه الآيات بشكل أساسيّ على الحوار الذي دار بينهم (آ ٦-١٠). يتكلّم أوّلاً شيوخ جلعاد (آ ٦)، ثانيًا يفتاح (آ ٧)، ثالثًا شيوخ جلعاد (آ ٨)، رابعًا يفتاح (آ ٩)، خامسًا شيوخ جلعاد (آ ١٠). ماذا دار في هذا الحوار وما هي أبرز عناصره؟

عرض شيوخ جلعاد أوّلاً على يفتاح أن يكون «قائدًا» لا «رئيسًا»، كما كان مُقرَّرًا في البرنامج. فالقائد مهمّته محدودة في الزمن، تقتصر على زمن الحرب. لقد حاولوا أوّلاً أن يستغلّوا يفتاح بأقلّ ثمن. يستعمل يفتاح سؤالاً بلاغيًّا مزدوجًا مُذكّرًا إيّاهم بطرده من بيت أبيه، وبتناقض عملهم الماضي (طردتموني) مع عملهم الحاضر (جئتم إليّ)، مُشدّدًا على حالة الضيق التي يمرّون بها والتي هي في أساس مجيئهم إليه. سؤاله البلاغيّ هذا يوحي بشكل واضح رفضه لما يعرضون عليه.

أمام هذا الرفض سوف يكشف شيوخ جلعاد مضمون البرنامج الذي أبقوه في مرحلة أولى مستترًا. تكلّموا واضحًا على «الرئاسة» وليس فقط على «القيادة»: عُدنا إليك لتذهب معنا وتحارب، وتكون لنا رئيسًا لكلّ سكّان جلعاد. إنّه المضمون الكامل للبرنامج؛ يرد في القول المحوريّ لهذا الحوار. جواب يفتاح يُعيد كلّ معطيات هذا البرنامج، ولكنّه يُضيف إليها البعد «الإلهيّ»: وهبهم لي الربّ. رئاسته ترتكز على عطيّة الربّ له. يختم شيوخ جلعاد حوارهم بجعل الربّ شاهدًا عليهم في عملهم بحسب كلمة يفتاح.

❑ ١١: ١١

تَلعب هذه الآية بالملء دور الخاتمة. إنّها تستعيد كلّ الأشخاص والمعطيات الواردة في النصّ لتُؤكّد على تحقيق البرنامج: يَفتاح، شيوخ جلعاد، الشعب، الربّ، الرئيس، القائد، المصفاة.

خاتمة

لقد وضع كاتب سفر القضاة قصّة رئاسة يفتاح في إطار رحمة الربّ وعطيّته. فرحمة الربّ شكّلت الأساس، وعطيّة النصر شكّلت الواسطة. أمّا الهدف فهو العمل على خلاص الشعب. فالشعب الذي ظهر في مطلع النصّ (١٠: ١٨) لن يظهر إلاّ في الخاتمة (١١: ١١)، مُعلنًا قبوله عطيّة الربّ التي تجلّت في رئاسة القاضي المُخلّص.

أمّا سياق الرواية فيُظهر شيوخ جلعاد يرفضون يفتاح أوّلاً؛ ثمّ عندما وقعوا في الضيق سَعَوا إلى استغلال محاربته على رأسهم دون تَرَوّسه عليهم؛ فلمّا رفض مُطالبًا بالرئاسة المطلقة عليهم قبلُوا (بالرغم من إرادتهم!؟). أليس هذا مُختصر مضمون النصّ (١٠: ٦-١٦) الذي يسبق نصّنا مباشرة؟ أليست هذه قصّة الشعب مع الربّ؟ إنّهم بانتظار من يُقصي عنهم غلاظة الأعناق ومن يستأصل من أحشائهم قلوب الحجر ويستبدلها بقلوب من لحم.